
تمزذكت قلعة حصار زيانية على أبواب بجاية

الدكتور : عزوق عبد الكريم

أستاذ محاضر بمعهد الآثار جامعة الجزائر 2

تمزذكت حصن زياتي تابع لبلدية القصر يبعد حوالي 25 كلم عن بجاية، ويوجد على الضفة اليسرى لنهر الصومام، ويبدو أنّ أصل كلمة (تمزذكت) بربرية، وتعني الطهارة أو النظافة. ويفهم منها أقيمت في الأصل لتكون حصنا لتطهير بجاية العاصمة من الحفصيين وأتباعهم. ويذكر ابن خلدون بأنّ هناك قلعة أخرى تحمل نفس الاسم (تامزذكت) بنيت قبالة وجدة بأقصى الغرب الجزائري⁽¹⁾، وهناك من المؤرخين من ذكره أنّها جبل تامزذكت المجاور لجنوب وجدة كيحي ابن خلدون بينما الحسن الوزان يذكر بأنّه حصن موجود بين صحراء أنكاد وناحية تلمسان، وقد تمّ بناؤه قديما على هضبة صخرية، وهو الحصن الذي تمّ تحديده على بعد حوالي 20 كلم جنوب وجدة على الكدية التي تسمّى اليوم بجبل المحصر⁽²⁾. ولذلك يبدو أنّ تسمية قلعة تمزذكت الزيانية الموجودة على أبواب بجاية لحصارها يأتي من باب التبرك والتميم بهذه القلعة التي حققت لهم انتصارات جنوب وجدة ضدّ المرينيين لأنّ امتلاكهم للمغرب الأوسط وبجاية يُمكنهم من الوصول إلى إفريقية وهو ما يتعارض مع المشروع المريني القاضي بالاستيلاء على بلاد المغرب بأكمله.

وعن أسباب بناء القلعة، يذكر ابن خلدون⁽³⁾ أنّه بعد تولي أبي تاشفين عبد الرحمن السلطة أصرّ على الاستيلاء على بجاية وقسنطينة، فقام بعدة حملات عليها الواحدة تلوى الأخرى في السنة الواحدة، ولكن بجاية استعصت عليه في

1- ابن خلدون. العبر. ج. 7، ص 220.

2- Samuel (G) ; Une enigme, le Djebel Mahseur, in. Bulletin de la société d'histoire du Maroc. N° 4-5, 1972-73, PP :21-36.

3- ابن خلدون. مرجع سابق. ج. 7، ص 19.

كلّ مرّة لمناعتها الطبيعية وحصانتها، ففكر في تحمير الكتائب عليها والاستمرار في حصارها، ولن يتأتى ذلك إلا باستقرار جيوشه بقرها، ففكر في بناء قلعة بجوارها.

فبني هذا الحصن أو القلعة عند حصار جيوشه لبجاية مرتين وذلك سنة 720هـ/1320م⁽¹⁾، وهذا بعد أن أدرك بأن حصن بكر الذي بناه قبل ذلك بوقت قصير لا يتسع للعدد الكبير من الجنود التي أعدها لمحاصرة بجاية، وكان عددها يزيد عن 3200 فارسا، فضلا عن أن حصن بكر كان بعيدا نسبيا عن بجاية، مما دفعه إلى التفكير في مكان آخر أكثر ملاءمة من حيث الاتساع والقرب من بجاية، فوقع اختياره على الموقع الذي يعرف بسوق الخميس في حوض الصومام، والتي جمع لها العمال بمساعدة الجنود، ولقد أتم بناءها في ظرف أربعين يوما⁽²⁾. وفي هذا الشأن يذكر «يحيى ابن خلدون»⁽³⁾ على أنه في سنة أربع وعشرين أمر السلطان «أبو تاشفين» قواده بالتهوض لحصار بجاية، وفي سنة ست وعشرين عاد «موسى بن علي بالجيش» إلى وادي بجاية قادما من قسنطينة بعد أن أفسد بقطرها الزرع والضرع، واحتط مدينة «تمززدكت» وقسم مسافاتها على الجيش فبنوها في مدة أربعين يوما، وأوطنها ثلاثة آلاف ومائتي فارس، وأمر السلطان بحمل الزرع إليها من جميع البلاد الشرقية، فشحت مخازنها أقواتا نامية، وهناك اشتد الحصار على بجاية وأهلها، وفي سنة ثلاث وثلاثين هدمها السلطان أبو الحسن وعاد إلى مغربه.

ولقد تعددت الوقائع بين بني حفص والزيايين إلى أن كان النصر فيها للزيايين في 729هـ/1328م، فأقاموا تخليدا لهذا النصر قصر «بكر» أو مدينة «تاقريدت»⁽⁴⁾ التي بناها القائد موسى بن علي بأمر من السلطان «أبي تاشفين»

1- عبد الرحمن محمد الجبالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط4، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص161.

2- Bourouiba (R), L'architecture militaire de l'Algérie médiévale, OPU, Alger, 1983, p109.

3- أبي زكريا يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تقديم وحقيق وتعليق الدكتور عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص217.

4- * هكذا ورد في نص عبد الرحمن الجبالي، ولكن يغلب على الظن أنها مدينة «تاقريت» المعروفة بهذا الاسم اليوم، والتي تبعد عنها ببضعة كيلومترات.

في مدة أربعين يوما، مما أجبر «أبي يحيى أبي بكر الثاني الحفصي» إلى الذهاب إلى مدينة «بونة» جريحا⁽¹⁾.

ورغم قلة المعلومات حول هذه القلعة الحصن من الناحية التاريخية و الأثرية وقلة الدراسات حولها، فقد سمحت لنا الزيارة الميدانية التي قمنا بها إلى هذه القلعة من الوقوف على عدة ملاحظات وحقائق: فمن حيث الطابع العام لأسوارها التي بقيت أطلالا قائمة (صورة 01) تتشابه إلى درجة كبيرة مع أسوار مدينة تلمسان والمنصورة (صورة 02)، إن لم نقل صورة طبق الأصل لها، كما تتشابه أيضا مع أسوار الآثار المكتشفة مؤخرا في منطقة «قرقرة» بالعمارة» ولاية عين الدفلى (صورة 03)، والتي يحتمل أن تكون قلعة من قلاع الزيانين أقيمت كمراكز تحصينية حماية لطريقهم من تلمسان نحو الشرق الجزائري، وذلك لتأمين خط الرجعة عبر هذه القلاع، وفي حالة صحة هذه الفرضية يمكننا القول بأن هناك طرازا معماريا واحدا موحدا يميز الدولة منشآت الدولة الزيانية آنذاك، فبمجرد ظهوره في منطقة ما سرعان ما ينتشر في كل الأقاليم التي يتم فتحها من قبل الدولة صاحبة الطراز ويعطي طابعا معماريا خاصا ومميزا لتلك الدولة، وهذا ما يفسر التواصل والاستمرار والتداخل الحضاري في البلد الواحد.

أما من حيث أسوار القلعة فقد رنا ما تبقى منها بحوالي 5م (صورة 04)، ولكن يبدو أن العلو المرجح لها يتراوح من 6 إلى 7م كما يذكر «بوروبي»⁽²⁾.

أما عن سمك الجدران فقد تأكل الكثير منها وما تبقى منها مع مرور الزمن، قدرناه في أكثر من نقطة من السور بـ 1.02م، لكن السمك الأصلي له، إذا أخذنا بعين الاعتبار التآكل الخارجي للطبقة الملبسة للحوائط، والتآكل الذي حصل في مادة البناء نفسها قد يتجاوز هذا التقدير بكثير، فقد يصل حتى متر ونصف (1.5م) أو أكثر لأن المكان أصلا بني ليكون قلعة عسكرية.

1 - عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ص 161.

2 - بورويبة رشيد، «أسوار المدن الإسلامية في العصر الوسيط»، ترجمة عريب مختار، مجلة الجامعة، العدد 18، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 41.

ولقد لاحظنا بأن أساس جدران القلعة غير عميقة تتراوح ما بين 80 سم إلى 1م وهذا ربما يفسر السرعة الفائقة في إنجاز هذا الحصن آنذاك، كما تشير إلى ذلك كتب التاريخ، وأسس الجدران مبنية بالحجارة، أما الناحية العليا فبالتراب المدكوك كما هو الحال في حصون «تنس» و«تنمل»⁽¹⁾. أما عن جدران الحصن من الداخل فكانت ملبسة بالجص مع بعض الأخشاب المدججة في السور.

يبدو حصن تمزذكت من خلال ملامحه العامة حصن مؤقت أقيم خصيصا للاستيلاء على بجاية وهذا ما يفسر السرعة في إنجازها، ومن الملاحظات أن داخل الأسوار عبارة عن مساحة واسعة مسطحة خالية من الأبنية، ولذلك فخلال أيام الحرت يتم العثور على بقايا قطع من الفخار والقرميد، مما يدل على أن هناك أبنية كانت بداخله، فمن المتعارف عليه في عمارة الحصون أن تتوفر فيها غرف للحند ومصلى لهم، بالإضافة إلى المكان المخصص للطبخ، والمخازن ومرابض الخيول وغيرها مما يوحي بأن القلعة كانت مساحتها مقسمة بانتظام لاستيعاب العدد الهائل من الجنود ومتطلباتهم لكن كل شيء اندثر ما عدا الأسوار الخارجية وبعض الأبراج المربعة. (صورة 05)

ومن الملاحظات الأثرية في أعلى السور أن هناك بقايا ممشى الحرس الذي كان يربط بين أبراج القلعة، وهذا السور مطوق بطريق للحراسة الدورية يعلوه أيضا جدار ارتفاعه 1م (صورة 06)، كما يذكر ذلك الأستاذ «بورويبة»⁽²⁾، ولكن لا أثر له اليوم ويذكر أيضا أن السور كان مسبقا بجندق لا أثر له اليوم أيضا، لكن ما لاحظناه بأن سور قلعة تمزذكت يتقدمه سور أمامي استعمل خصيصا لتكسير الهجمات على القلعة (صورة 07). وهذا النوع من الحواجز أو الفواصل أو الستائر تتقدم عادة المداخل ونقاط الضعف الإنشائية في الأسوار، وذلك بغرض إقامة عراقيل لتقدم العدو وإمكانية إصابته قبل الوصول إلى الأبواب وإعاقة حركة جنده.

أما عن داخل القلعة فمن خلال ما تبقى من أسوار حاولنا إعادة تصور لمخطط القلعة العام، والمرجح أن يكون بها مدخلا أو اثنان على الأكثر لأن

1- نفسه، ص 41.

2- بورويبة، أسوار المدن...، ص 41.

تعدد المداخل في القلعة يعتبر نقاط ضعف في العمارة العسكرية وخطأ في التقدير الدفاعي ويمنح الفرصة للعدو من اقتحامها من هذه الفتحات، كما أن ما تبقى بها من أبراج مستطيلة وعددها اثنان في الواجهة الأمامية للحصن، وبقايا أثار برج في الركن الجنوبي للحصن، جعلنا نفترض بأن قلعة تمزذكت كانت متوجة بأبراج في أركانها، وعملا بمبدأ التماثل والتناظر التي هي سمة من سمات العمارة والفن الإسلامي افترضنا بأن يكون السور المقابل للسور الأمامي يحتوي على برجين مربعي الشكل كما يمكن أن يكون الضلعان الجانبيان بدورهما مزودين ببرج في كل سور على الأقل وهذا ما يسمح بمراقبة فعالة وناجعة من مختلف الجهات المحيطة بالحصن لتدعيم الأسوار نفسها، وعلى هذه الأساسيات تم تصورنا الافتراضي للإطار العام للحصن تمزذكت (شكل 01).

وفي واجهة السور الرئيسية فتحة كبيرة يجهل إن كانت بقايا لباب أم أنها فتحة ناتجة عن ضربات المنجنيق. ولا بد أن نشير إلى أن الموقع العام للقلعة يحتل سهلا منبسطا يحيط به الوادي من جوانبه وهي طريقة دفاعية أيضا، ولقد عثر به على بعض الآثار الرومانية القديمة لدعامات من الغرانيت والحجر المصقول وبقايا لمعصرة زيتون رومانية، مما يرجح على أن الرومان قد استعملوا هذا المكان قبل مجيء المسلمين، كما أن الموقع لا يبعد عن مدينة «تيكالات» الرومانية إلا بحوالي 3 كلم على أكثر تقدير، وما زالت أطلال المدينة قائمة لحد الآن.

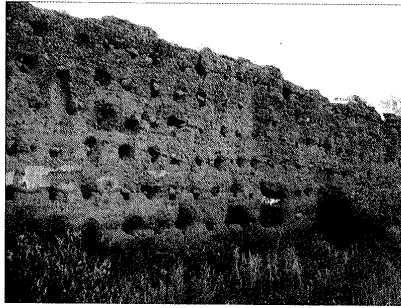
أما عن تقنية ومواد البناء اللتين بنيت بهما القلعة، فهي لا تختلف عن تلك التي طبقت في تلمسان ونواحيها، وهي تقنية القوالب أو المداميك وهي على هيئة صندوق من الخشب يتألف من ألواح أفقية و عمودية تتناسب مع سمك الحائط المرغوب، وتمتاز هذه التقنية بدقة وإحكام كبيرين من حيث السمك والطول والإرتفاع والمقاسات⁽¹⁾، ولقد تحدث ابن خلدون كثيرا وتفصيل عن هذه التقنية وأهم مراحلها حيث يقول «... البناء بالتراب خاصة تقام منه حيطان يتخذ لها لوحان من الخشب فقدران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير. وأوسطه أربع أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد يوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها

1- لعرج عبد العزيز: مدينة المنصورة المربنية بتلمسان، شركة ابن باديس للكتاب، 2011، ص261.

بالحبال والجدر. ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحيان آخرين صغيرين...»⁽¹⁾

أما عن الثقوب الموجودة في حائط فهي نتيجة لوضع القالب و تثبيته على الحوائط بواسطة الأوتاد والقضبان الخشبية وهي ما زالت قائمة في الأسوار. وإن كان الملاحظ في قلعة تمزدكت استعمال حجر الوادي في البناء في شكل صفوف متراصة ومنظمة تفصل بين المدماك و الآخر، لكون القلعة كما سبق الذكر مبنية في مكان منبسط ومرتفع يحيط بها الوادي في مختلف جهاتها.

ومن خلال استعراض عام لأهم الحصون والقلاع التي تنتشر في بجاية ومازالت آثارها قائمة لحد الآن يتبين لنا أهمية الخطط المنتهجة آنذاك لتوفير الأمن والأمان للمدينة، وعن المراحل التي مرت بها في العصر الإسلامي، كما توحى أيضا بتطور فن العمارة لاسيما في مجالها الدفاعي من حيث التخطيط والتقنية وطريقة الاتصال بين الحصون والقلاع والتي من دون شك أيضا رافقها تطور في استعمال السلاح الدفاعي آنذاك. ولعل قلعة تمزدكت وما تبقى من معالمها لخير دليل على التحصينات الدفاعية للدولة الزيانية خارج حدود عاصمتها تلمسان، والتي ترسم لنا معالم وأنماط القلاع العسكرية المميّزة لهذه الفترة من التاريخ الإسلامي بأرض الجزائر.

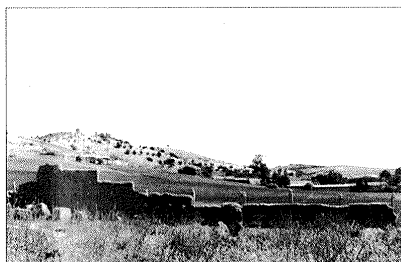


صورة 01: أسوار قلعة تمزدكت ببجاية

1- ابن خلدون. العبر، ج7، ص 726-727.



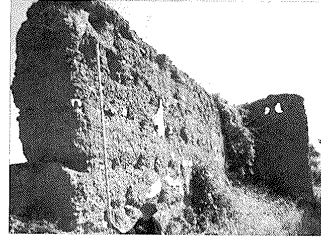
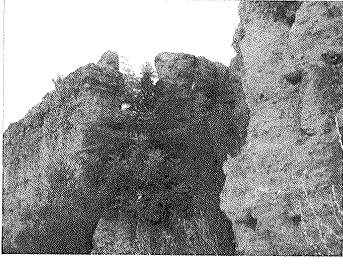
صورة 02: أسوار المنصورة بتلمسان



صورة 03: أسوار قرقرة بعين الدفلى

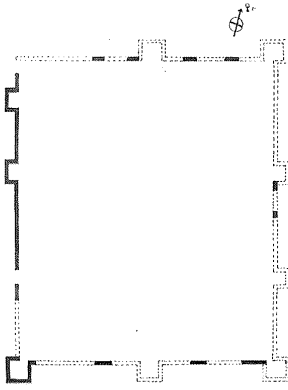


صورة 04: علو أسوار تمززدكت ببجاية



صورة 06: آثار ممشى الحرس بأعلى سور
تمززدكت ببجاية

صورة 05: برج مربع في سور تمززدكت
ببجاية



صورة 07: سور أمامي لتكسير الهجمات
بتمززدكت ببجاية

شكل: 01 اعادة تصور لقلعة
تمززدكت (من عمل الباحث) سلم 1/500